٥- فلسفة الأخلاق عند سقراط

لم يهتم سقراط بدراسة الكوسموس بل اهتم بالإنسان، حيث كان سقراط يقضي وقته في الحوار عن الإنسان " وكان يفتش عن ما هو أخلاقي وما هو غير أخلاقي". كما يقول تَلميذُه كزينوفون: وإن كنا نرى أن سقراط ليس هو أول من أنزل الفلسفة من سماء الكوسموس إلى أرض الإنسان؛ كما هو شائع اتباعًا لرأي شيشرون في كتابه المناقشات التوسكولانية، بل سبقه الفيثاغوريون في دراسة المسائل الإنسانية وعلى نحو أخص سبقه السوفسطائيون. ومع ذلك فقد كان السؤال الأخلاقي هو السؤال المركزي في فلسفة سقراط.

سنتناول بالشرح الفلسفة الأخلاقية عند سقراط في المحاور الأربعة الآتية:

- الفضيلة علم والرذيلة جهل
- لا أحد يفعل الشر بإرادته
- الفضيلة واحدة: هي الحكمة
- غاية الفضيلة: تحقيق السعادة

١. الفضيلةُ علمٌ والرذيلةُ جهل!

لقد ترتب على المبدأ السقراطي المشهور: "اعرف نفسك" نظريتُه الأخلاقيةُ التي تتلخصُ في أن الفضيلةَ معرفةٌ والرزيلةَ جهلٌ. وهذه هي النقطة الرئيسة في تعاليم سقراط الأخلاقية وهي التوحيد بين الفضيلة والمعرفة. **إن سبب الانحراف الأخلاقي عند سقراط هو سبب يتعلق بمعرفة الفضيلة معرفة ماهوية؛ أي معرفة بالحد أو بالتعريف الكلي، كما بينا في محاضرة فلسفة الماهيات عند سقراط. (ويمكنكم أن ترجعوا إليها أعزائي الطلاب)**

لقد آمن سقراط بأن الإنسان لا يستطيع أن يسلك على نحو فاضل إلا إذا عرف أولاً ماهية الفضيلة أي إذا عرف مفهوم الفضيلة. وهكذا تتأسس الأخلاق على المعرفة ويجب أن تصدرَ عنها. يقول سقراط إذن أن الفضيلة علم أي أن الإنسان إذا لم يكن لديه معرفة فلن يكون أخلاقياً ولم يقدر أن يمارس السلوك الأخلاقي، أي أن المعرفة شرط جوهري للسوك الأخلاقي عند سقراط.

وهنا يمكن أن يتعرض سقراط لنقد جوهري: إن سقراط لم يقدم مفهوماً أخلاقيًا كليا- حسب شرطه الإبيستمولوجي المعرفي- ففي محاورة لاخيس لم يعرَّف الشجاعة وفي محاورة يوثيفرون لم يعرَّف التقوى تعريفًا ماهوياً كليًا وهكذا في بقية الفضائل التي بحثها سقراط. وهذا النقد يمكنه أن يشرخَ جِدارَ الأخلاقِ السقراطية الصُلب!

٢. لا أحدَ يفعلُ الشرَ بإرادته!

د. شرف الدين عبد الحميد

لم يقتصر الأمر عند سقراط على الاعتقاد بأن الإنسان إذا لم تكن لديه معرفة فلن يسلك سلوكًا فاضلاً، بل إن الإنسان إذا حصل على المعرفة، أي صار عارفًا فإنه لا يستطيع أن يتصرف على نحو خاطئ فلا يرتكب الشر. لماذا؟ لأن كلَ فعل خاطئ يصدر عن الجهل. وإذا عرف الإنسان ما هو الفعل الصواب فإنه يجب وحتماً ولزامًا أن يفعل ما هو حق وصواب.

يقول سقراط: "ما من إنسان يرتكب الخطأ عامدًا". إن الإنسان يرتكب الخطأ فقط لأنه لا يعرف المفهوم الحق للصواب ولما كان جاهلاً، فإنه يظن أن ما يفعله هو الخير.

ويقول سقراط في عبارة أخرى: "إذا أخطأ الإنسان عامدًا فإنه أفضل ممن يخطئ بدون تعمد" ومرة أخرى لماذا؟ لأن لدى العامد أي المتعمد الشرط الجوهري للخيرية وهو معرفة الخير، لكن الثاني، أي غير العامد ،فإنه تنقصه تلك المعرفة ولهذا فهو بلا حول ولا قوة، أي بلا إرادة أو قصد.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن: هل تتفق هذه العقلانية الأخلاقية" السقراطية مع وقائع الحياة اليومية التي يحياها بنو البشر جميعًا؟! ألسنا على وعي بأننا نحن أنفسنا نفعل أحيانًا عن عمد ما نعرف أنه خطأ؟ ونحن عندما نتحدث عن إنسان ونقول إنه مسئول عن سلوكه السيئ، أو عن الشرير أنه مسئول عن شره؛ ألسنا نعتقد أنه فعل هذا الفعل مع علمه أنه سيء أو مع علمه بأنه شرير؟ فإذا كان لدينا ما يبرر أن نفترض أنه لا يلام لجهله بسوء السلوك أو عمل الشر، فإننا في هذه الحالة لا نعتبره مسئولاً أخلاقيًا عما فعل.

لقد لاحظ أرسطو أن سقراط قد تجاهل أو تناسى الأجزاء اللاعقلية في النفس الإنسانية. فالأنسان ليس عقلاً خالصًا بل هو أيضا مشاعر وأحاسيس ووجدان وتخيل وخوف وقلق إلخ.

لقد تخيل سقراط أن أفعال كل إنسان لا يحكمها إلا العقل وحده. ولقد نسى أن غالبية أفعال الناس محكومة بالانفعالات والعواطف أي محكومة "بالأجزاء اللاعقلية في النفس". كم قال أرسطو.

ونقد أرسطو لسقراط قوي جداً وربما لا يمكن الرد عليه؛ فيكفي أن تنظر إلى سلوك الناس لتكتشفَ أن الناسَ يرتكبون الخطأَ عمدًا أي أنهم مع معرفتهم للصواب فإنهم يرتكبون الخطأ. ولكن من السهل أن نتبين السبب الذي دفع سقراط إلى القول بهذه المقولة التي تبدو متناقضة مع وقائع الحياة اليومية التي يحياها بنو البشر: إنه كان يعبر عن نفسه أي عن حاله هو. إن سقراط يبدو بالفعل– كما رأينا في مراحل حياته– أنه فوق الضعف الإنساني.

كما انتقد الفيلسوف الألماني نيتشه سقراط نقداً تجاوز فيه نيتشه النقد الموضوعي باتهام سقراط بأنه كان سببَ انحطاط الرُوحِ الإغريقية والتي تتمثل في ما يدعوه نيتشه بالروح الديونيسيوسية نسبه إلى إله اللذة والغريزة ديونسيوس و يا له من اتهامٍ ظالم من نيتشه الذي يوحد بين السعادة والغريزة بينما كان سقراط يوحد بين السعادة والعقل وشتان ما بينهما!

د شرف الدين عبد الحميد

وهذا القول المشهور عن سقراط يدل على مبلغ إيمانه بالعقل وحبه للخير؛ وإن كان فيه إسراف فما أجمله من إسراف على حد تعبير يوسف كرم!

٣. الفضيلة واحدة: هي الحكمة

إننا نتحدث–عادة – عن فضائل عديدة: التسامح، المروءة، الإحسان، الشفقة إلخ لكن سقراط قد آمن بأن كل هذه الفضائل الجزئية تصدر عن مصدر واحد هو السوفروسيني الاعتدال أو الحكمة **(σωφροςυνη)** . لهذا فإن المعرفة نفسها أي الحكمة هي الفضيلة الوحيدة وهذه الفضيلة تشمل جميع الفضائل الأخرى. ومعنى هذا أن الحق والخير والجمال من طبيعة واحدة، فما يجمع بينها هو الاتساق والانسجام والترابط والوحدة: فالحق خير وجميل لا ينفصل أحدهما عن الآخر ولا يُفهم أحدهما بغير الآخر؛ وكذلك الخير جميل وحقيقي، ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك؛ فلولا أن الخير جميل ما كان خيرًا ولولا أنه حق لكان كل شيء آخر إلا أن يكون خيرًا. وكذلك الجمال حق وخير: اسمان لمسمى واحد ووجهان لعملة واحدة.

٤. غاية الفضيلة: تحقيق السعادة

وإذا ما كان الإنسان فاضلاً وحكيمًا، فلابد أن تتحقق له السعادة: غاية الأخلاق بل غاية الفلسفة السقراطية برُمتها. ويمكن أن نوجزَ نظريةَ سقراط في النقاط الآتية:

١- الفضيلة هى الخير الأوحد

٢- أن الحكمة هي رأس الفضائل جميعًا؛

٣- إذاً الفضيلة واحدة

٤- الفضيلة ضرورية وكافية لضمان السعادة.

٥- الأخيار لا يمكن أن يتأثروا بالأشرار.

نلاحظ في الواقع أن المفاهيم السقراطية الثلاثة وهى: المعرفة **ἐπιστημὴ** والفضيلة **ἀρετὴ** والسعادة **εὐδαιμονία** إنما تبدو متصلةً ومتداخلةً فيما بينها لدرجة أن السعادة تتلاشى في الفضيلة، والفضيلة تتلاشى في المعرفة، فالفضيلة عند سقراط هي المعرفة، معرفة الخير بما في ذلك الفضيلة، والسعادة أيضًا تتحقق بامتلاك الفضيلة التي هي حالة من حالات النفس التي تمكننا من السعادة. على ذلك لم تكن السعادة عند سقراط تعنى ما كانت تعنيه عند معاصريه من الماديين أمثال "أرستيبوس القورينائي"، الذي كان يوحد بين السعادة وبين اللذة (ἡδονη) الحسية وغيره ممن يتصورون السعادة في الجاه أو في المجد أو السلطان كما يقول كسينوفون في كتابه ذكريات سقرط أو الميمورابيليا. إنما السعادة التي يسعى إليها سقراط والتي يتحقق بها الخير الأقصى إنما تتلخص في قناعة النفس وطهارتها.

د. بشرى الدين عبد الحميد